عوائد الحبش

للصيدلي القانوني ميخائيل افندي عبد الله رعد

١ الهيئة والطبع

انَّ شعب الاحباش يتألف من ١٢ الى ١٥ مليوناً من المسيحيين وهم متفرّقون في كل انحاء جبال الحبشة ويرقون اصلهم الى بني سام. اما العائلة المالكة اليوم فتفتخر خصوصاً بانَّ سلالتها تتصل بسليمان الحكيم وملكة سبا (راجع المشرق ١٥ ت١ سنة ١٩٠٣) فالحبشيّ الاصلي الذي لم يختلط دمهُ بدم العبيد يختلف كل الاختلاف عن عبيد السودان فهو ليس باسود اللون وانما لون بشرته زيتونيّ او احمر نحاسيّ وهذا اللون يتنوّع كتنوّع الاصل والقصيلة وامتزاج الدم ونوع المعيشة وغير ذلك من العوامل فترى الاسمر والضارب الى الحمرة والزيتونيّ والاسود. وكثيرٌ منهم وخصوصاً النساء يبعد شبههم عن العبيد بملاسة الشعور وخفة الشفاه وجمال الملامح. فالفتى والفتاة من الاحباش ليسا بشنيعي الهيئة في حداثة سنهما ولكن لا يتم التعب ونوع المعيشة ان يغيّرا تلك الهيئة فيظهر عليهما بعد ذلك عدم انتظام في الاعضاء وشناعة في الخلقة

والاحباش الفرويّون حريصون على حفظ انسابهم ويقال ان عندما يزوّجون اولادهم يتحقّق كل من الطرفين نسب الخطيب والخطيبة الى الجدّ الرابع على الاقل ولكن سكان المدن قلّما يراعون مسألة النسب وخصوصاً الاكابر منهم وقد تجد العظماء والامراء يتزوجون بفتيات فُتنوا بحسنهنّ فلم يشدّدوا البحث عن الاصل والفصل وكم من اولئك الجلائل لسنَ في الاصل سوى غنائم حرب او سبايا غزوات فاصبحنَ بعد ذلك اميرات سامياتٍ. وقد أُتيح لي نظر بعض الاميرات واصلهنَّ من قبائل الگوراگي فهنَّ يعشنَ مخدّرات في بيوت اركان الدولة الذينَ يبالغون في اكرامهنَّ لانهنَّ منظومات في سلك حاشية جلالة الامبراطورة بينما بنو جلدتهنَّ من رجال هذه القبائل يعيشون كالوحوش لا يستر عريهم الّا بعض الاسمال البالية او جلود الغنم وقد لا يذوقون من القوت سوى الحنطة اليابس تراهم يقضمونهُ في الطريق كالبغال. على ان تلك الاميرات سواء كنَّ حبشيّات الاصل ام سبايا الغزوات والحروب كانهنَّ جميلات الهيئة لطيفات

اللامح ويستطاع القول اجمالًا ان الاحباش يقدّرون جمال المرء بقدر ما يكون لون بشرته فاتحًا وبقدر ما يقرب من الابيض. واذا قالوا فلانة حمراء عنوا بذلك انها جميلة واذا قالوا عنها انها سوداء اشاروا به الى كونها قبيحة شنعاء.

*

كل حبشي على الاطلاق خامل كسلان ومن اتّخذ صناعة فهو عندهم بنوع الاجمال ساقط دنيء ومن ارتزق بمهنة متعبة كالحدّادين والبنّائين والنعلة ونحو ذلك فيُحسبون من السفلة. وقد تأصّلت البطالة في طبائع الاحباش وهي ام الرذائل فتراهم يقضون سحابة نهارهم واقسام ليالييهم في معاقرة الخمور وفساد الآداب والمشاجرات والمخاصمات والملاحكات والدسائس والمرافعات. واذا دخل حبشي معك بحديث لا تجد لحديثه من نهاية او من جدوى ويلذّ لهُ حديث الكايد والحيل فتبرق عيناهُ من حين الى حين فيظن الناظر اليه ان استنارة عينيه تدل على حذق عندهُ او مهارة وليس الامر كذلك. ومن عاش بينهم زمنًا ولو يسيرًا ودرس شيئًا من اطباعهم قلما ينخدع بمثل هذه الظواهر. ومما يزيد في الطنبور نغمة ان الحبشي معجب بنفسهِ متعجرف الى حد التوحش وهو مع ذلك جندي لا يجارى من البسالة وتروق في عينيه المظاهرات. فترى الجندي الحبشي — وكلهم مبدئيًا جنود — يقاسي الحرّ والبرد والتعب بسهولة غريبة فتراهُ يستطيع الذهاب مشيًا على الاقدام بلا زاد ولا اثقال نحو الستين والثمانين كيلو مترًا في اليوم وذلك خمسة او ستة ايام متوالية وهو شديد القناعة يكتفي قليل من الحبوب المشويّة على النار وجرعة ماء بيد انهُ اذا وجد الطعام واللحم النيء على الخصوص قد يقضي نهاره من الصباح الى المساء اكلًا وشربًا بلا انقطاع ولا قياس. وكما انهُ يتناسى الجوع والعطش فهو يحتمل ايضًا الآلام بكل صبر وشجاعة فيسلّم يدهُ او رجلهُ للقطع وانهُ للجدع او يسير الى المشنقة ولا يبالي ودون ان يظهر عليه اشارات اليأس.

سمعت يومًا انّ احد الضباط حُكم عليه بالاعدام لارتكابه جريمة قتل وسُلّم كالعادة المرعية في الحبشة الى اهل القتيل كي يُعدموه بالسيف. واذ بلغوا بهِ الى مكان الاعدام قال لهُ اخو القتيل وهو يستلُّ سيفهُ ليقتلهُ:

هل انت خائف

– كلّا لست بخائف منك لان ايديَّ مغلولة ولا استطيع شيئاً ولو كنت واياك في غير هـذا المكان لجرى الامر على خلاف ما نحن . اعلم ان اخاك هو الذي كان يرتجف مني خوفاً عندما اعدمتهُ الحياة

٣ اللباس والزينة

ثوب الحبشي بسيط اوّلي فهو يلبس سروالاً واسع الدقاريز في اعلاه ضيّق الارجل في اسفله وقميصاً طويلاً الى الركبة ضيق الاكمام . وكلا الثوبين يُعمل من القماش القطني الابيض البسيط والرجل عادةً يخيطهما بيده . ثم يرتدي فوق ذلك برداء ابيض اشبه بالازار يلتفّ بهِ كما كان يتزر الروم والرومان في سالف الاعصار . واذا كان فصل الشتاء والقرّ اقشع فوق ذلك ببُرنس غليظ النسج يحيكهِ الاحباش انفسهم من صوف الغنم الاسود وهو يشبه كثيراً وشاح الرعاة الاكراد المعروف في لغة الشام باللبّاد او الكوبان وهو يسيل مكشوف الرأس حافي الرجلين ولا يلبس الاحذية الّا من اصابه جذام او مرض كريه . والاغنياء منهم يلفّون رأسهم بمنديل من القماش الابيض الرقيق وقد درج اليوم اتّخاذ القبعة عند التزر اليسير . واذا كان الحبشي في سفر او خرج من بلده لفّ حقويه بزنار من القماش ثم تمنطق فوقهُ بمنطقة من الجلد . وهو زنار الخرطوش ثم شكّ مسدّسهُ وحمل بندقيتهُ وسار

هذا هو لباس الحبشي يلبسهُ على السواء (الّا في بعض أيام الاعياد والاحتفالات السنويّة) الكبير والصغير والغني والفقير . على ان الامراء وذوي المناصب الرفيعة يختلفون عمّا سواهم بلبس بُرنس من الحرير مطرّز الاطراف والقبعة . امّا الاعياد والاحتفالات فالمتقدّمون منهم بالوظائف يلبسون فيها قميصاً من الانسجة الحريريّة يخامهُ عليهم عادةً الملك او الامراء . ومن ابتاع قميصاً حريريًّا ولبسهُ دون ان يُخلع عليهِ في البدء او يستأذن بهِ رئيسه الاعلى فيؤخذ منهُ القميص وتُغلّ وتجلاه بالحديد . وفوق هذا القميص يلبسون رداء من جلد الاسد او النمر وقد يقوم مقامه وشاح من المخمل المطرّز الّا انهُ اقل شأناً من الجلود ولو كان اكثر رونقاً

ويجب على كل مسيحي ان يعلّق في عنقه سلكاً رفيعاً اسود اللون او ازرقهُ والبعض يربطون في هذا السلك صليباً من الفضة او الحديد وغيرهم يزيدون فوق الصليب

حلقةً ومحكًا للاذن وقلمًا من رصاص او تمائم وكتابات ليردُّوا سوء العين كما يزعمون او غير ذلك من الخزعبلات. اما النساء فيلبسنَ سروالًا عريضًا تشدُّ رجلاه عند الركبة وقفطانًا مرحرحًا هو نوع من القميص ضيق الاكمام وربَّما طرَّزت تلك الاكمام وفتحة الصدر بخيوط من الحرير الازرق. والفتيات منهنَّ وهنَّ الاميرات ونسوة ذوي المناصب يلبسنَ الاساور الفضيَّة الغليظة في ايديهنَّ والخلاخل في ارجلهنَّ ويتشحنَ بالبرنس الحريري كرجالهنَّ

والاحباش غالبًا قذرون في بيوتهم وملابسهم وماكلهم والفلَّاح منهم اذا ابتاع ثوبًا جديدًا غسله اوَّلًا بالسمن ثم نشرهُ بالشمس من اربعة الى ثمانية أيام وعاد فلبسهُ وهو لا يغسلهُ حتى يتقطَّع ويسقط. على ان سكَّان المدن وخصوصًا الموظفون والذين دخلوا في خدمة الافرنج او عاملوهم كالباعة والدلالين فهؤلاء وان لم يغيِّروا عاداتهم القذرة في بيوتهم وماكلهم الَّا انهم اضحوا اليوم احرص على غسل لباسهم ويحبون التظاهر في أيَّام الاحاد والاعياد على الاخص بثوب نظيف ابيض وذلك اذا سمحت لهم ذات يدهم فمكَّنتهم من شراء الصابون

واذا مات احدهم لبس عليهِ اقاربهُ وذووه الحداد وما ثوب الحداد عندهم الَّا اللباس القذر المقطع. واذا كان الميت من الاسرة المالكة او من الامراء الرؤوس او من حكام المقاطعات او الامارات رأيت الاحباش كلهم مرتدين باثياب القذرة البالية وبعضهم يصبغون اثيابهم بصبغة وسخة

*

الاحباش يجزُّون شعور رؤوسهم لا يختلف في ذلك رجالهم ونساؤهم والبعض منهم يحلقونها بالموسى او بقطعة من الزجاج وصغارهم يتركون لهم اكاليلًا من الشعر على دائرة رؤوسهم ثم يحلقون لهم الوسط. والبعض يجمعون لهم ناصيةً طويلة بدل الاكاليل المستديرة. والذين اشتهروا بالفروسية كقاتلي الاسد والفيل فهؤلاء يرخون شعور رؤوسهم مسترسلةً وربَّما اهملوها متشعثةً منتصبة ويضعون الحلق في آذانهم. وبعض النساء يربينَ شعورهنَّ ويضفرنها ضفائر رفيعة ثم يطلينها بالسمن مع مساحيق بعض النباتات العطريَّة. اما في اوقات الحداد فيحلق شعر الرأس ضربة لازب الرجال والنساء على حدٍّ سواء

٣ المساكن

مساكن الاحباش كلها كناية عن اكواخ حقيرة مستديرة الشكل تُصنع من الاخشاب او اغصان الشجر او القصب يضمُّونها الى بعضها بالحبال او بالالياف و يطلونها من داخل ومن خارج بالطين ثم يجعلون فوقها سقفاً من الهشيم هو كناية عن غطاء هرمي يحبكونه بالاعشاب اليابسة حبكاً دقيقاً حتى لا تعود تخرقه مياه الشتاء بالرغم عن غزارة الامطار التي تهطل سيولاً في هذه الاقطار الاقريقية . واذا كان صاحب البيت ذا يسر او كان من الرؤساء او من الحكام بنى بيته مستطيل الشكل لكنه يجعله مستدير الطرفين او بالحري بيضاوي الشكل فان الاحباش لا يعرفون صنع الزوايا في جدران بيوتهم . وهم لا يعملون لبيوتهم ابواباً تغلق ولا نوافذ بل يستترون المدخل في الليل بشيء من الاغصان وفي المحلات الكثيرة السكان يقوم مقام الباب ستارة من الحصير . ففي مثل هذا الكوخ ينام الحبشي ويجلس و يأكل و يشرب و يطبخ ويخبز وتبيت معهُ بهائمه ومواشيه ولذلك كثرت امراض العيون عند الاحباش وخصوصاً الاغشية فوق البؤبؤ وما ذلك الّا لطول مكثهم وسط الدخان . اما العظماء فبيوتهم واسعة العرصة وهي على شكل صيرة او زريبة يحيط بها سياج من الاشواك وفي وسطها عددٌ من الاكواخ السابق وصفها منها للطبخ ومنها للخبز ومنها لمبيت البهائم ومنها للعبيد ومنها لاجتماع الخدام والعبيد في الولائم وكوخ لمبيت سيد البيت مع امرأته و بنائه وحصانه العزيزين

واذا دخلتَ الى داخل هذه المساكن لا تجد شيئاً مما اعتدنا عليه من ضروريات المعيشة فهنالك قطعة حصير او جلد مبسوط على الخشيش وهو الفراش ثم بعض اثياب معلقةً او منضَّدة في حفيظة او في كيس وطبق قش وهو السفرة وورجاق النار و بعض الآنية الفخّارية وقصعة من الخشب لسكب الطعام وجرة ماء وقدحان مصنوعان من قرون البقر وقرن ضخم او اثنان فيهما البوزا وهما عادةً يعلقان على الجدار . واذا كان البيت مسكن احد الاكابر يفرشونهُ بالعشب اليابس والقش وفي صدره سرير من الخشب محبوك بسيور من الجلد وعليه سجادة ومخدّتان للتوكّؤ هذا مجلس السيد وفراش نومه وامام هذا المقعد بساطٌ من الصوف او اثنان لجلوس الضيوف . وفوقه ترى معلقًا

على الجدار بندقية السيد وجعبته وترسه وسيفه وكتاب المزامير في محفظة من الجلد. والامراء تصدروا اليوم بعض المدنية فتجد في بيوتهم الاسرّة الحديدية والسجاد النفيس والاواني المرصّعة بالفضة والمحلّاة بالذهب والانسجة المزركشة والبكراسي والمقاعد واكثر ذلك هدايا من الاجانب

وقد ابتدأ اليوم بعض هؤلاء الامراء والعظماء ببناء بيوت بل هي قصور على الهندسة الحديثة الافرنجية مغطّاة بالصفائح او بالقرميد. ولكن لم تزل مثل هذه البيوت تُعدّ على الاصابع ولا يستعملها عادةً اربابها الامراء الّا عند استقبال ضيف ذي مقام او احد الافرنج اما هم فيسكنون اكواخهم على جانب هذه القصور. حتى ان النجاشي منليك نفسه لم يسكن قصره الفخيم الّا من سنين قلائل ولانهُ اضطرّ الى ذلك بحكم الترقي لكثرة مداخلته اليوم مع الاوربيين ومواصلة زيارات السفراء والتناصل له. وجلالته في مقدمة الاحباش الذين اعجبهم التمدّن العصري فخطوا الخطوة الكبيرة نحوه

٤ الاغذية والولائم

غذاء الاحباش خبز فطير مصنوع من دقيق الحبوب واكثرها الذُرة والقمح ونوع يُدعى بلسانهم «تِلف» حبّه دقيق كالسمسم وخبزه فيه طعم من الحموضة وهو يعرفهم افخر انواع الخبز. والحبش يعجنون الدقيق بالماء بلا ملح وهم يجعلونه رخوًا ثم يصبّونه اقراصًا رقيقة على صفائح من فخار او من حديد تُعرف في بلادنا بالساج. وفي الاعياد يعملون نوعًا من خبز القمح يضيفون في عجينه بعض النباتات العطرية ثم يجمارونه كتلًا ويلفّونه بعروق الموز ويخبزونه بعد ذلك في وسط صاجين يُحميان بنار خفيفة

اما الطبخ فغير متنوّع الالوان يضيفون الى جميعه كميات كبيرة من البسباس الاحمر. وانواع هذا الطبخ ما عدا المرق ثريد جامد مركب من البسباس ودقيق الحمص او الفول او العدس مع شيء من السمن والبصل. وما عدا ذلك فهم يأكلون اللبن الجامد واللحم المقلي والحبوب اليابسة نيئةً او محتصةً على النار او مسلوقةً بالماء. اما اللحوم فيأكلون البقر والغنم والمعزي ويأكلون لحمها نيئًا على الخصوص ومن الطيور الدجاج ومن الطرائد بعضها كالغزال والايل وفرس الماء واما الخنزير وبقية الطرائد مجتنبةً كانت

ام من ذوات الاربع فلا يذوقونها . وهم لا يذوقون ايضاً من الخضر الّا قليلاً من نوع كوسب برّي مخصوص يدعى كرب البقر ومن الفواكه سوى الموز والكباد والليمون الحامض وما سوى ذلك فمن زرع خضرة او فاكهة باعها للافرنج

واذا جلس الحبشي لتناول الطعام تربع على الارض امام طبق من القش عليه ارغفة الخبز مطبق بعضها فوق البعض والثريد مسكوب على الرغيف الاعلى فيقطع الآكل الخبز باصابعه ويغمسه بالحساء ويأكل . واذا كان مع الطعام شيء من اللحم المقلي او المسلوق قُطع إرباً ونُثر على الخبز امامه . ثم يأتي عبدٌ حاملاً فخذ بقر او غنم نيئاً فيأخذ المتكيّ سكيناً ويقطع منه ما شاء ويناوله بشراهة . ثم يقدّم اليه قدح من القرن او من الحديد يسع لتراً على الاقل فيه سكنجبين من العسل او بوزا من الشعير فيشرب وقد لا يرتوي الّا بعد ان يكون شرب خماساً او سداساً . والثري منهم تجلس بجانبه جارية او خادم يحضر له اللقم ويدخلها في فيه . واذا قُدم اليه الشراب جُعل وسط قارورة كروية البطن ولها رقبة رفيعة . وقد تُلفّ هذه القارورة بمنديل من الحرير اذا كان رب البيت من الامراء او من ذوي المناصب الرفيعة

وفي الولائم العمومية التي تُعدّ سُفرها في الاعياد عند الملك او الامراء فيجعل الخبز المغموس بالحساء على سفر مستطيلة واطئة تُعمل عادةً من القصب المحبوك بالسيور . وقد درج اليوم في بيت الملك استعمالها من الخشب لانّ القصب سريع التكسّر . فيجلس الناس حولها متربعين على الارض او على العشب اليابس المفروش وهنالك رجال مشمري السواعد يحملون الخبز فيغمسونه في الحساء ويجعلون فوقه الثريد واللحم المطبوخ ويقدمونه للآكلين . وغيرهم وهم السقاة يقدمون البوزا والسكنجبين وخدام آخرون يقدمون اللحم النيّ وغيرهم يتقبلون الاقداح الفارغة فيملؤنها من البراميل . وقد اعتاضوا في بيت الملك عن البراميل بانابيب حديدية يجري فيها السكنجبين في ايام الاعياد كالماء . وهناك ايضاً رجالٌ في ايديهم العصي الطوال يُخرجون الفوج الذي انتهى من الاكل والشرب ويُدخلون غيره متى هم وقوف على الباب . وقد يجدو بهم الجدال الى الضرب بقساوة فيقوم الخصام ويعلو الصراخ وتتكسر الرؤوس وتسيل الدماء ولا عجب اذا كان الحجّاب والخدام والسقاة والناس كلهم سكارى لا يعلمون ما هم فاعلون